الناشر العربي

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الناشرين العرب تعنى بشؤون النشر وقضايا الكتاب - العدد الحادي عشر ١٩٩٠

* هكذا غنى طاغور *

عبد الكريم غلاب

من نعمة الله على الانسان أن الحياة أرحب من أن تضيق آفاقها أمام ناظريه، وفي زحمة العمل والمجاهدة والتفكير السياسي والحياتي يمكن للنفس الانسانية أن تهرب إلى عالم أرحب، أكثر راحة وطمأنينة وأوسع أفقاً وأبهى جمالاً وأعذب ملمساً، وأغنى رواء، ولن تجد ذلك إلا في الشعر والموسيقى والرسم، كما لعلك واجده في مصدر كل ذلك في الطبيعة وهي تنشدك بألوانها وأنغامها وأضوائها وأنغامها شعراً تحسه وقد لا تقوله ولا تلمسه تغني لك بصوت يستقر في أعماقك دون أن يمر على قناة أذنيك، تهمس في أحاسيسك دون صياح ولا دق طبول، تقدم لك زهرة، وردة، غصناً أخضر، باقة ياسمين تتشممها، تمنح بها ناظريك تضمها إلى صدرك وتنسى: تنسى كل ترهات الحياة ومهازل الانسان، وتفاهات السياسة.

والذين فروا إلى الشعر لم يكونوا جبناء عن مواجهة الحياة الصاخبة ولكنهم رأوا أن الصخب يجتذب الكثيرين وقليل هم الذين يجتذبهم الهمس والبساطة والغنائية والشفافية والصفاء والإشراق والغور العميق.

وذلك سر الأسرار في أن الشعر قليل وربما كان أقل فنون القول حضوراً في الحياة وأن الشعراء قليلون وربما كانوا أقل الشرائح الاجتماعية في كلّ مجتمعات الدنيا. وقد يكون من السهل أن تكون عالم ذرة ولكن ليس من السهل أن تكون شاعراً من هؤلاء الذين يمثلون «الأقلية» في عالم يزخر بالأكثريات، وحينما أشرف أحياناً على الغرق، أحن إلى الشعر كقشة أنقاذ.

العالم الذي نعيشه صاخب ملء بالضجيج. وأشعر أحياناً أني في حاجة إلى غرفة منعزلة أستمع فيها إلى همس نفس، إلى صفاء ذهني.

أتلمس أمعائي لعل فيها بقايا خبز ومحبة وصدق ونظافة، وكثيراً ما تكون هذه الغرفة المنعزلة ديوان شعر.

فتح لي باب غرفة رائعة الجمال هذه المرة صديقي الشاعر الكاتب المترجم الأستاذ خليفة محمد التليسي، فقد أحسست أنه فر هو الآخر من ضجيج الحياة فعاش مع طاغور الشاعر الهندي المعظم داراساً ومترجماً فقدم رائعاته الثلاث: جنجالي، وجني الثمار ومجموعة قصائد الأمل والتحدي بلغة عربية تليق بعمق شعر طاغور وبساطته وجماله وغنائيته وشفافيته في أجمل طباعة وأروع شكل.

ومزية شعر طاغور الأولى الفسحة التي تنفذ من الصخب، فقد عاش هو الآخر في صخب الحياة التي عرفتها الهند في الأربعين سنة الأخيرة من القرن الماضي وما من شك في أنه كان يعيش مع قومه وهم يجاهدون التخلف والاستعمار والفقر وصراعات الأديان والطوائف والمذاهب وخرافات العقول التي يخلقها التخلف الفكري ولكنه كان يجنح إلى الغرفة المنعزلة البعيدة عن الصخب المفتحة في نفس الوقت على الطبيعة وعلى الإنسان وعلى القيم وعلى النفس الصافية الرقراقة وعلى المحبة ليتأمل في ملكوت الله ولتكون الهمسات

الناعمة من كل ذلك وليكون الصمت الذي توفره الغرفة المنعزلة في وسط الغاب أكثر عمقاً ليكون ناسكاً حقيقياً:

إذا لم تحمل همسات ناعمة
صمت الغاب أكثر عمقاً
فلن أكون أبداً ناسكاً

وكان طاغور سليل الفكر الهندي الغارق في الروحانية ولكن روحانيته لم تتجه نحو السلبية في الحياة وإنما اتجهت إلى الالتصاق بالإنسانية وقيمها الرفيعة وكان يجد هذه القيم في الأديان جميعها الهندوسية والإسلام والمسيحية على السواء. لم يكن بعيداً عن الإسلام وهو هندوسي فقد كان يسكن إقليم البنغال وأغلب سكانه مسلمون والبيئة الإسلامية بروحانيتها غالبة عليه ولذلك كان للإسلام أثر في وجدانه وفي إدراكه للقيم الإنسانية من خلال الإسلام. ولا غرابة اذن أن نجد هذه القيم التي تتجاور ولا تتنافر في الديانات السماوية وغير السماوية، تطبع انجاهاته الشعرية. لم يكن فيلسوفاً ولا باحثاً ولذلك لا نجد في إبداعه تفسيراً لهذه القيم وفلسفة لها وإنما هي نظرات إنسانية شعرية بطبعها حب الإنسان والرغبة في إسعاده.

ولعل البلاد التي عاش فيها ثقافته والشعب الذي نضجت مواهبه بين أحضانه كان لها أثر في هذا الاتجاه الصوفي الملتصق بالإنسان المتشد لسعادته المغني من أجل إنقاذه.

كان يلتجيء إلى الطبيعة لتمنحه القدرة على فهم الحياة والغناء لها، كان يحب الطبيعة مفتوناً بروعتها يجعل منها إطاراً لشعره لأنها مدرسة للخير والعطاء وللرحابة والإنطلاق والانشراح ومعجزة دالة بقوانينها على العظمة الالهية. وما من شاعر ساق الطبيعة في مهرجان كبير كما فعل طاغور في شعره كما قال الأستاذ التليسي في المقدمة التحليلية الرائعة التي كتبها للأجزاء الثلاثة من شعر طاغور ومنها استقى كثيراً من تحليلات شعره وحياته.

وارتباط طاغور بالحياة والطبيعة والإنسان منحه فهماً متقدماً لسلوكه الصوفي ونظراته المتصوفة البارزة في شعره، لم يرفض الحياة ولم يرفض الناس ولم يرفض الطبيعة وإنما اندمج في كل ذلك وجعل من هذا الاندماج مادته الأساسية الأولى في شعره الغزير:

لتكف عن إنشاد أناشيدك.

وتلاوة تراتيلك
من الذي تعبده في هذه الزاوية المظلمة
المنفردة؟
في معبد أبوابه كلها مغلقة
لتفتح عينيك
ولتنتظر
إن إلهك ليس هنا
إنه هناك
حيث الحراث يحرث الأرض الصلدة
ويحث بجهد عامل الطريق في كسر الحجارة
إنه معهم
في الشمس الساطعة وفي الأمطار الهاطلة
ثيابه مغبرة بالغبار
فلتنزع معطفك القدسي
ولتنزل معه في الغبار
ولتقف قريباً منه
حيث العمل وعرق الجبين

والشعراء الكبار يأخذون من الحياة أروع ما فيها وأجمل ما فيها، وأكثر قيمها إثارة للجمال والحب والاندماج مع الانسان ولكنهم لواقعيتهم لا يغمضون أعينهم عن الاحزان والآلام والتفاهات وإذا استطاعوا أن يزاوجوا بين هذه النظرة التعادلية وبين أدواتهم الفنية قدموا للإنسانية إبداعاً وعملاً فنياً رائعاً ولعمل الصدق مع الحياة الذي طبع رؤية طاغور الشاعر لدنيا الناس هو الذي صبغ شعره بالبساطة والعمق في آن: البساطة لأن الحياة نفسها بسيطة ولأن التعامل معها تطبعه البساطة ما لم يعقده التفكير التجريدي.

والشعراء الذين يحاولون عن طريق التعقيد والغموض ورص الكلمات وتحطيم الأدوات التعبير الجمالي ورفض الأداء الموسيقي يكتبون كل شيء إلا الشعر، لأن الشعر الذي يتسم بهذه الصفات يفتقد كثيراً من قيم الشعر قديمه وحديثه وهو الاتصال بالانسان والصدق مع الحياة وحمل الخطاب إلى الآخر بل إشراك الآخر في التعبير الشعري، إذ إن القراءة الشاعرة للشعر إبداع جديد للشعر والذين يغوصون مع الشاعر في اكتشاف أغواره العميقة يسهمون في الإبداع وإلا ظل الشعر حروفاً سوداء مكتوبة على أوراق بيضاء.

ومن هنا أخذ القراء في جميع أنحاء العالم ببساطة شعر طاغور وبوضوحيته وشفافيته وصفاء صوره وغنائية لغته. وقد يقرأ قارىء غير متذوق قصيدة طاغورية فيحسبها للطفل يحاول أن يشعر ولكنه لا يلبث أن يدرك أن عظمة الشعر هذا في بساطته وأن الحياة هي ملهمة الشاعر وليست «الصنعة» التي تحاول لكي تجعل المصنوع معجباً وجميلاً أن تضيف إليه كثيراً من المساحيق لا يلبث أن يتعرى من جماله لأبسط هبة ريح.

أعتقد أن شفافية الشعر ووضوحه ينحدان من نفس شفافة ورؤية واضحة للأشياء والناس، واللغة لم توضع لتكون أحجيات غامضة يشغل الشاعر والقارىء (أولهما معاً) نفسيهما لاكتشاف الاحجية حتى إذا اكتشف أحدهما ما اكتشف الآخر، قال له الآخر صادقاً: أحطت، وسيظل كل منهما يحطىء ويخطىء والضحية هو الشعر، الشعر الذي ظل سجيناً، سجين المحبسين: اللغة والمضمون.

لم يكن طاغور من هؤلاء الذين يجعلون من الشعر صناعة

التعقيد، ولكنه كان من فحول الشعراء الذين يجعلون من الشعراء فناً رفيعاً يخاطب النفس والروح والعقل، ويخد إلى قلوبها دون استئذان.

حسبي أن أشرك القراء في تذوق هذه القطعة الجميلة البسيطة اللغة والأداء، وفن القص، السامية المضمون الرهيفة المشاعر:

الطائر الحبيس في القفص
والطائر الطليق في الغاب
التقيا حين أزف وقت اللقاء
تلك كانت مشيئة القدر
هتف الطائر الطليق برفيقه
يا حبيبي لنلتحق في الغاب
ولكن الطائر الحبيس عس
تعال لنعش معاً في القفص
فيقول الطائر الطليق
بين القضبان؟ كيف نجد الفضاء لنبسط أجنحتنا؟
فيصرخ العصفور الطليق:
يا حبيبي غن
أغنيات الغاب
فيقول الطائر السجين:
اجلس بالقرب مني
أعلمك لغة العارفين
فيصرخ الطائر الطليق:
لا.. لا إن الأغنيات لا تعلم
فيقول الطائر السجين: أواه إني لا أعرف أغنيات الغاب
إن حبها لعميق ومدمر
ولكنهما لا يستطيعان التحليق معاً

ومن خلال قضبان القفص
يتأملان، ويعيدان في التأمل
ولكن: عبثاً يحاولان التعرف على بعضهما
فيهزان أجنحتهما ويغنيان:
«تعال اقترب مني يا حبيبي»
فيصرخ العصفور الطليق:
«مستحيل، إني أخشى أبواب القفص المقفلة»
فيهمس العصفور السجين:
«أواه إن أجنحتي لعاجزة هيناه»
بهذه البساطة وهذه الشفافية وهذا الاندماج في الطبيعة يأخذ من طيورها المثل، يغني طائفور أغنية الحرية.

ولا أريد أن أنقل من الأجزاء الثلاثة لمأتم من هذا الشعر الرائع الجميل الأعاد وإنما أشير إلى أن المترجم الأستاذ خليفة التليسي حاول بقدرته الفائقة على امتلاك العربية وإجادة التعبير الشعري بموهبته الممتازة على إتقان اللغة التي ترجم عنها (الإيطالية) قدم لنا طائفور وكأننا نقرأه في اللغة التي كتب بها شعره (البنغالية والإنجليزية) وبذلك نسد ثغرة كبيرة في البقاء الثقافات والفنون.

فقد عرف القراء طاغور من خلال حصوله على جائزة نوبل للآداب عام 1914 م، ومن خلال نتف من قصائده نقلت إلى العربية عن الإنجليزية ولولا إشادة الشعراء الإنجليز الكبار بشعره وتقديم الشاعر الايرلندي «يتس» لديوانه لظل مجهولاً بين العرب حتى جاء الأستاذ خليفة التليسي ليقدم لنا مجموعات شعره في ثلاثة أجزاء جميلة المظهر غنية المخبر.

لقد أتاح الأستاذ خليفة التليسي للمعموم قراء العربية أن يعيشوا مع شعر إنساني جيد لشاعر هندي كبير.